بهجة الوصل

فخري قعوار

إلى الدكتور ميشال سليمان الذي قال: «أكُلُّ الذي عشتُه مشهدٌ، تساوى به المخرجون والمجرمون؟ لسوف أمارس دور افتراس النساء اللواتي ينافسنني في الغواية بالقرب من خطوات البنفسج والآس، حين يجيء الصباح المبلّل بالوصل، سوف أمارس دور اقتطاع الرجولة، ممّن تعاطى معي الاحتلام المسيَّب في غفلة العمر».

كان المساء بارداً، فتدثّرت بمعطفي، ورفعت ياقة حول رقبتي وطرفي أذني، ودسست نفسي في سيارتي، ومضيت نحو المقهى.

قلت لها إني سأنتظرها هناك. وعندما تحدّثنا على الهاتف بعد الظهر، كان الجوّ دافئاً، فظننت أنّي أستطيع الجلوس على رصيف المقهى. لكنّني حين وصلتُ، وجدت الرصيف خالياً، والكراسي كلّها في الداخل، والزبائن في الداخل أيضاً.

اخترت موقعاً عند الشبّاك المطلّ على الشارع. من هنا ستمرّ. وربّما عَرَفت أنّني في الداخل، دون أن يقول لها أحد ذلك، فهي ذكيّة، وشأنٌ كهذا لا يحتاج إلى ذكاء، فالطقس الذي انقلب فجأة، يدفع النّاس إلى هنا دفعاً.

امرأة ضالعة في الأربعينات، تحاول العودة إلى الثلاثينات بالأصباغ التي دلقتها على شعر رأسها، وَطَلَتْ بها وجهها وشفتيها ورموش عينيها وجفونها. كانت تدخّن صنفاً من السجائر الطويلة، وتتحدّث بحماسة لشاب مرتبك، لا يكفّ عن هزّ رأسه بالموافقة على كلّ ما تقوله. رأسه محلوق على طريقة المارينز، وكلّما حناه إلى أمام، برزت عضلة حدباء تحت جلد عنقه.

صبايا دون العشرين، يتضاحكن ويأكلن المثلّجات والحلويات، ومن نظراتهن أدركت أنّهن يعلّقن تعليقات ساخرة على الآخرين. ربّما كنت موضوعاً لسخريتهن، لكنّني لم أضبط أيّةً منهن متلبّسة بالنظر نحوي.

بندول الساعة في المقهى، يبدو جذلاً دائماً. نشيطاً دائماً. لحظات، وتعبر من هنا. من وراء الشبّاك. لكن هذا البخار الذي أخذ يتكاثف على الزجاج قد يجعلها تمرّ دون أن أراها. وقد تنظر من بعيد إلى رصيف المقهى، فلا تجد أحداً، وتمضي. أمسح الزجاج بالمحارم الورقية الموزّعة على الطاولة، فيترك البخار آثاراً من الماء تجعل صورة الشارع مكسّرة قليلة الوضوح.

لم أشرب شيئاً. ولم أدفع شيئاً. نهضت، وهممت بالخروج، فجاء النادل معتذراً لأنّه لم يسألني عن طلبي. قال:

– كنت أظنّ أنّك تنتظر شخصاً ما.

فقلت له وأنا أحاول أن أنهي الحديث معه:

– لا توجد مشكلة. عليّ أن أذهب الآن.

أضاف وأنا أبتعد عنه:

– كما تريد. المهمّ أن تكون راضياً عنّا.

عدت ثانية إلى رفع ياقة المعطف حول عنقي وطرفي أذني، ووقفت على حافة رصيف المقهى، أنظر في الاتجاهين، وأنظر إلى السيّارات المسرعة، التي لا تتوقّف واحدة منها هنا.

ستتوقّف سيارتها هنا، وستهبط منها. وربما أبادر أنا إلى فتح الباب لها. ولكن، لا، فهذا يدلّ على لهفة لا أحبّ أن أظهرها.

مرّ رجل يلفّ رأسه بكوفية، ويدفع أمامه عربة يبيع عليها ذرة مسلوقة. وقفت سيارة زرقاء، هبط منها شابّ وصبيّة، دخلا إلى المقهى. على طرف الشارع المقابل، عامل يمسح سيارة.

وقفت سيارة سوداء، هبط منها رجل معتدّ بأناقته، وعندما مرّ من جانبي، حيّاني بابتسامة مرتبكة ثم توقّف قائلاً:

– هل تنتظر أحداً؟

كان السؤال تدخّلا سافراً في شؤوني الخاصّة. قلت:

– وما شأنك أنت؟

قال:

– كنت أظنّ أنّني أستطيع أن أقدّم لك خدمة.

قلت باستهجان:

– خدمة؟

قال:

– نعم. خدمة.

قلت بهدف إحراجه:

– لكنني أنتظر صديقة.

قال بثقة:

– أعرف ذلك.

أثار فضولي وضيقي معاً. قلت له:

– مادمت تعرف، فلماذا سألت: هل أنتظر أحداً؟

ضحك وقال:

– فاتحة كلام.

قلت:

– وما هي الخدمة التي تريد تقديمها لي؟

قال وهو ينظر إلى السيارات العابرة:

– لا أعرف ما هي على وجه الدقّة، لكنّك تستطيع أن تطلب منّي ذلك.

ضقت به أكثر، وقلت:

– هل لي أن أتشرّف بمعرفتك؟

قال:

– لطفي. الأستاذ لطفي الابراهيمي!

قلت:

– وماذا تعمل؟

قال:

– أعمل أشياء كثيرة لا تعجب النّاس.

قلت:

– مثل هذا الذي تعمله الآن ولا يعجبني؟

ابتسم بعدم اكتراث وقال:

– تماماً. تماماً.

أضاف وقد استطالت ابتسامته تحت شاربه:

– إنها وظيفة لا أقدر على التخلّي عنها. وكلّما علمت بفرصة للتدخّل، لا أتوانى.

قلت مستوضحاً:

– وكيف تعلم بالفرص؟

قال:

– ألم أقل لك إنّني أعمل أشياء كثيرة؟

قلت:

– نعم.

قال:

– فأنا مثلاً علاّم بالغيوب!

ضحكت وقلت:

– وقابض أرواح.

قال مؤكّداً:

– أعمل أشياء كثيرة، لكنّها لم تعجب أحداً قط!

قلت محاولا اختصار الحديث معه:

– على كل حالٍ شكراً.

وتشاغلت عنه بالنظر إلى السيّارات القادمة، لكنّه قال:

– لا أدري لماذا تتعب نفسك بالوقوف في هذا الطقس البارد!

هززت رأسي، وتابعت النظر إلى السيارات، حتى دخل المقهى.

نظرت إلى الساعة، كان الوقت قد جاوز الموعد بدقائق. وما هي إلاّ لحظات، حتى جاءت بسيارتها الصغيرة الناعمة كصوتها. ابتسمت وهي تسحب المفتاح وتهبط وتقفل الباب. ظلّت الابتسامة على وجهها المضيء بلمعة خفيفة، إلى أن صافحتني قائلة:

– هل تأخّرت عليك؟

قلت ساعياً لإخفاء اضطرابي:

– لا. أبداً.

وضحكت قائلاً:

– فأنت دقيقة كالساعة!

وعلى باب المقهى، قلت مستدركاً:

– ما رأيك في جولة بالسيارة. أليست أفضل من بحلقة العيون المتطفّلة؟

وكنت أعني لطفي الابراهيمي، وبحلقة عينيه. قالت:

– كما تريد.

قلت:

– نركب في سيارتي.

قالت:

– كما تريد.

قلت:

– هل نمشي في هذا الاتجاه؟

قالت:

– كما تريد.

قلت:

– هل نخرج من هنا إلى هذا الطريق الترابي؟

قالت:

– كما تريد.

قلت:

– هل نتوقّف هنا في هذا الخلاء المعتم؟

قالت:

– كما تريد.

ضقت ذرعاً بطاعتها الزائدة، وقلت، ونحن نسمع أصواتاً بعيدة مبهمة، ولا نرى شيئاً سوى التماعات نجوم السماء:

– أحب أن تعترضي أحياناً، أو أن تقترحي شيئاً، بدلاً من هذه الموافقة الدائمة.

قالت:

– معك لا يوجد عندي اعتراض أو اقتراح.

وأضافت:

– قلت لي على الهاتف إنّك كبرت وأنت ترضع إبهامك.

قلت:

– نعم. قلت هذا.

قالت:

– ألا تشتاق إلى رضعه؟

قلت:

– أشتاق.

قالت:

– ضعه في فمي.

مجنونة. مجنونة منحدرة من سلالة مجانين. أشعلت في رأسي ناراً. أدارت حريقاً في دمي. كنت مبتهجاً بجنونها. كنت بحاجة إلى هذا الجنون الذي يلسعني في رتابة أيامي.

عمّان

اليوم الأخير للمطر

جلال نعيم حسن

– ألو.. ألو.. أم لينا؟

آه حبيبتي كيفَ أنتِ؟.. ولينا؟. كبرت!.. نبتت لها ضفيرتان جميلتان؟.. أين هي؟.. في المدرسة.. آه يا لينتي الحبيبة!

أمازالت تحب الدُّمى؟.. اشتريتُ لها دُبّاً صَغيراً ها اني أضمّه إلى صدري.. ماذا؟ واللّه أنا مشتاق أكثر.. منذ لحظات فقط أنزلوني إلى ساحة الميدان وهاأنذا أُكلمك من الهاتف العمومي.. نعم أطلقوا سراحي اليوم – لم يكن ذلك شاقّاً.. ناداني مدير المعتقل واعتذر لي بجمل طويلة منمقّة، وبعث لي «إستكان» شاي دافئ ارتشفته بسرعة، وقبل أن أخرج قلتُ له بخبث «إلى اللقاء!» ولكنّه ردّ عليَّ بجزم «وداعاً».. ماذا... ماذا؟.. بالطبع. أجلسوني على قنانٍ فارغة طويلة الأعناق.. لا. لا، أظافري على حالها، ولكن فقط.. أوه حبيبتي لا تذكريني بذلك. إني الآن فرحان جدّاً. أوه يا للروعة!.. أتسمعين؟ إنه المطر بدأ يهطل.. كم أحب ذلك.. ها هو شارع الرشيد الذي تعشقينه يغتسل بالمطر.. والناس، الناس ما أجملهم هكذا وهم يتسكعون.. يتصافحون أو يتشاتمون، يهمسون أو يصرخون.. أوه حبيبتي، انتظريني سأستقل تاكسياً وآتي حالاً. لن أتأخّر.. انتَظِ.. آآآخ.. اللعنة. ما هذا الألم.. آآآ.. أحشائي تتمزّق.. لا. لا. لا أُريد الموت.. لا أريد أن أموت اليوم.. آخ.. معدتي.. آآه السـ.. السّم.. (**سقطت الدمية**). لينا كل شيء يسقط.. آآه.. إني أتهاوى.. إني أ..م..وو..تْ.

العراق